



جوانب خفية من حياة

أرسطو وابن رشد

أ/ أحمد بنّاسي

أستاذ فلسفة - الجزائر.

لقد وجدت صعوبة قصوى في جمع هذه المعلومات رغم وفرة المصادر وكثرتها، لأن بعض المؤلفين، مع الأسف الشديد، وإن كانوا ذوي الاختصاص، ومعروفين بأسلوبهم الأكاديمي، نجدهم يركزون على جانب دون جوانب أخرى، فيما يخص السيرة الذاتية للفيلسوفين الكبيرين، أرسطو، وابن رشد. فمعظم المصادر تشير إلى نكبة ابن رشد ونفي الخليفة له في "اليسانة" وأنه لا يعرف له نسب بين القبائل العربية؛ لكن "سارتون" هو المصدر الوحيد في حدود علمي الذي أشار إلى أن أرسطو طعن أيضا في سلالة اليونانية وإته من سلالة يهودية وأعتقد أن هذا تقصير من طرف الباحثين في حق القارئ، والمعرفة، والحقيقة، ثم إن معظم المصادر لا تشير أصلا إلى أن كلا من أرسطو وابن رشد كانا يقرضان الشعر في شباهما، ومن نتائج هذا الإهمال أيضا حجب

الرؤية الواسعة لتطور الفكر الأرسطي والرشدي. وبالإضافة إلى هذا فإنّ الباحثين يقدّمون أحيانا معلومات عامّة أقل ما يقال عنها أنّها معلومات تحدث التثويش والبلبلّة في ذهن القارئ أكثر مما تفيده وعلى سبيل المثال يقول يوسف كرم عن أرسطو :

" قصد إذن إلى آسيا الصّغرى، ومكث فيها مدة، وتزوّج " والحقيقة أنّ أرسطو اتّجه إلى مدينة "أسوس" ومكث فيها ثلاث سنوات، أو عندما يقول عبد الرّحمن بدوي في كتابه "أرسطو": " واستمر أرسطو يدرّس في اللوكيوم، حتى وفاته سنة 322 ق.م" والصّواب أنه هاجر إلى مدينة "خاليكس" بعد وفاة "الإسكندر" سنة 323 ق.م وتوفي بها سنة 322 ق.م وعلى هذا الأساس حاولت في هذه الكلمة المتواضعة جمع المعلومات من مختلف المصادر وضبطها بشيء من الدقّة والموضوعية بقدر ما استطعت وهدفي الأسمى هو خدمة القارئ الكريم والحقيقة ثانية. وفقنا الله جميعا.

أرسطو في سطور.

أرسطو عملاق من عمالقة الفلسفة، وقائد من أعظم قادة الفكر البشري ولد سنة 384 ق.م في مدينة "سطاغيرا"، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره بعثه أبوه إلى "أثينا"، عاصمة العلم والثقافة ليصبح طالبا في الأكاديمية التي أسّسها وأشرف على تسييرها الفيلسوف العظيم "أفلاطون" (427 - 347 ق.م) وظلّ ينهل من منبعها الفيّاض مدة 20 سنة أي منذ سنة 367 إلى سنة 347

السنة التي توفي فيها "أفلاطون". غادر أرسطو "أثينا" إلى مدينة "أسوس" وبقى فيها مدة 3 سنوات. وفي سنة 344 ق.م، استدعاه الملك المقدوني "فيليبس" ليشرف على تعليم ابنه "الإسكندر الأكبر". وفي سنة 363 ق.م ارتقى "الإسكندر" العرش إثر وفاة أبيه "فيليبس" مقتولا، فعاد أرسطو إلى "أثينا" ليؤسس مدرسة "اللوقيون" على غرار أكاديمية "أفلاطون"، لكن الإسكندر الأكبر توفي سنة 323 ق.م فاضطرَّ أرسطو إلى مغادرة مدينة "خاليكس" وبها توفي سنة 322 ق.م، وهكذا عاش أرسطو 62 سنة قضاها بين التدريس والتأليف والسياسة.

أرسطو ومحيطه الثقافي والحضاري.

هنالك عوامل عديدة ساعدت أرسطو على تفجير طاقاته الإبداعية في مختلف الميادين أهمها الفلسفة. فلقد تربى في أحضان أسرة كانت تتعاطى الطب، فلقد كان أبوه طبيبا خاصا للملك "أميناس الثاني" (جد الإسكندر) مما جعله يتلقى ثقافة مزدوجة، ثقافة علمية، وثقافة سياسية أرستقراطية مستمدة من أروقة الأمراء والملوك. فلما استكمل تعليمه الثانوي حسب تعبيرنا الحديث وأصبح مهينا لكسب معركة التعليم الجامعي، بعثه أبوه في سن السابعة عشرة لينخرط في الأكاديمية وليتلمذ على يد "أفلاطون"، ومما هو جدير بالملاحظة أن "أفلاطون" كان في تلك الفترة قد تجاوز الستين من العمر وهذا له مغزاه ودلالته، ذلك أن "أفلاطون" في تلك المرحلة كان قد استكمل مذهبه الفلسفي

وتخلّى عن بعض أفكاره الحاملة التي بثّها عبر كتبه في عهد الشّباب، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الفكر اليوناني في عهد أرسطو طبعاً كان يعيش عصره الذهبي بحيث أنّ الفلسفة بعده أخذت تحبو وتحتضر شيئاً فشيئاً إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة سنة 529 م.

أرسطو والمنهج الجدلي .

لقد كانت فلسفة أرسطو في عمومها فلسفة تركيبية كما يرى الأستاذ "حسن حنفي"، فلم تكن مجرد كتابة تاريخية يعرض فيها آراء المتقدّمين عليه، بل استخدم منهاجاً جدلياً، فلقد اعتبر الفلاسفة الطبيعيين كموضوع باعتبارهم أنّهم أعطوا الأولوية للجانب الحسي في المعرفة، أما "أفلاطون" فلقد اعتبرها "نقيض الموضوع". لأنّ "أفلاطون" كان يؤمن بالمثل أي الحقائق المطلقة ولها وجود واقعي وهي عبارة عن ماهيات سابقة عن الوجود. أما أرسطو فكان يمثّل المركّب بين الجانب الحسي والعقلي. يقول الدكتور "حسن حنفي": "إذا كان الطبائعيون القدامى قد استعملوا أسلوب الخطابة بما لديهم من إحساس شعري بالعلم وعبروا عنه بلغة الرمز، وإذا كان "سقراط" و"أفلاطون" قد استعملوا أسلوب الجدل والحوار والتهكّم والتّوليد فإنّ أرسطو هو الذي استعمل أسلوب البرهان الذي يكتمل فيه الخطابة والجدل"¹.

¹ - مؤتمر ابن رشد، ابن رشد شارحا، حسن حنفي ص 78.

نكبة أرسطو.

حينما غادر أرسطو "أثينا" إلى "خاليكس"، قال قولته المشهورة: "لا حاجة لأن أهيئ للأثينيين فرصة جديدة للإجرام ضد الفلسفة"². فما هو سبب هذه النكبة؟

إن سببها يعود إلى عاملين أساسيين أو إلى سببين: سبب عنصري، وسبب سياسي. فالسبب العنصري أولا — هو أن أرسطو كان يعتبر أجنبيا ولم يكن يونانيا خالصا، ولذلك عندما توفي "أفلاطون" لم تسند إليه رئاسة الأكاديمية رغم أن "أفلاطون" كان يصفه بأنه العقل والقراء. فالقانون اليوناني لا يسمح لأي أجنبي كان أن يترأس المؤسسات اليونانية. ثانيا — أنه عندما أسس مدرسته الشهيرة "اللوكيوم" لم تكن تحمل اسمه ولم يكن صاحبها القانوني، فلقد سجلها تحت اسم "تاوقراطوس"، أما السبب السياسي فلقد كانت "أثينا" في هذا الظرف بالذات تعيش حالة من الاضطراب، فلقد كان "الفرس" يتحرش بها من جهة و"المقدونيون" من جهة أخرى، وعلى هذا تأسس حزبان: حزب يقوده "ايسوقراط" وكان من مؤيدي التعاون مع "المقدونيين" لدحر أطماع "الفرس"، أما الحزب الثاني فكان يقوده "ديموستين" وهو حزب قومي هدفه الدفاع عن استقلال "أثينا" سواء تعلق الأمر بالفرس أو المقدونيين، لكن الغلبة كانت للحزب المتعاون مع المقدونيين،

² - تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم ص 113.

وحيثما توفي "الإسكندر" انتعش حزب "ديموستين" فأخذ اليونانيون ينتقمون من الأجانب ومن حملتهم أرسطو لأنه كان أجنبيا من جهة وكان من مؤيدي الغزو المقدوني³. لقد قال "عبد الرحمان بدوي": "لقد كان فيلسوفا أجنبيا جاء في حماية سلطة أجنبية"⁴. وهكذا اتهم بالإلحاد وفر إلى "خاليكس" حتى لا ترتكب "أثينا" الجريمة مرة ثانية في حق الفلسفة.

أرسطو الشاعر.

بعض المصادر تشير إلى أن إنتاج أرسطو في عهد الشباب يختلف جذريا عن إنتاجه في كبره، لكن معظم هذه المصادر لا تذكر مطلقا أن أرسطو كان شاعرا، والحقيقة أنه كان يتعاطى الشعر في عهد شبابه ويتجلى ذلك في القصيدة التي سماها "نشيد الفضيلة" تخليدا لروح صديقه "هيرميوس". و"هيرميوس" هذا كان يجري مفاوضات مع "فيليبس" المقدوني لشنّ حرب ضد "الفرس"، وكان أرسطو هو الوسيط بين "هيرميوس" و"فيليبس". لكن الفرس تفتنوا لأمر هذه المفاوضات واعتبروها مؤامرة فألقي عليه القبض وأعدم سنة 343 ق.م وقد خلّده أرسطو واعتبره بطلا وطنيا قوميا يستحقّ التخليد والتّمجيد، لكن "الأثينيين" ألبسوا هذه القصيدة لباسا سياسيا واتخذوها دليلا ماديا لإدانة أرسطو بالعمالة ضد بلادهم فكان أن اعتبر ملحدا كما مر بنا. إن ما يعيننا هنا نحن هو أن أرسطو عرف بأنه فيلسوف وعالم ولكنه لم يعرفه الناس

³- تاريخ العلم، جورج سارتون ص 156.

⁴- أرسطو، بدوي عبد الرحمان ص 34.

على أنه كان يمكن أن يكون شاعرا لو أراد ذلك.

أرسطو واليهود .

لقد زعم اليهود فيما زعموا أن أرسطو من سلالة يهودية. إن هذا ليس بدعا في تاريخ اليهود فلقد زعموا أن جذور التراث اليوناني ومنابعه الأصلية إنما تعود إلى التراث اليهودي، ولقد خصص "سارتون" في كتابه: "تاريخ العلم" فصلا خاصا في هذا الجانب نقتطف منه بعض الأمثلة. لقد زعم "أريستوبولوس" (145 ق.م). أن "هوميروس" - الشاعر - و"فيثاغورس" و"أفلاطون" وأرسطو اقتبسوا الكثير عن التقليد العبري. كما أن أحد المؤلفين واسمه "الإسكندر" (105 ق.م)، كان ينشر التاريخ العبري بين أهل روما وكان يزعم أن الحضارة اليهودية هي أقدم حضارة في العالم وأن المعارف اليونانية مقتبسة من مصادر يهودية. كما أن يهوديا آخر اسمه "ابن سليمان القاضي" حاول في مقدّمة كتابه أن يثبت أن أرسطو كان بالفعل يحاول إيضاح التعاليم الدينية، كما هي مثبتة في التّوراة.

كما أن أحد الوعّاظ للملك "هانري الثامن" قال: "أنا لست أعارض ما جاء في هذه الكتب اليونانية ولا أقف منها موقف العداء مادامت هي مستمدة من العبرية". على أن "سارتون" يعلّق على هذه المزاعم كلها بقوله: "بُجد هذا الزّعم قد تسرّب إلى التراث العربي عبر رسائل "إخوان الصفاء" ويقول "سارتون": " ففي الرّسالة الحادية والعشرين من رسائل "إخوان

الصفاء" يسأل أحدهم خطيباً يونانياً شديد الزهو بالفلسفة وبالعلوم اليونانية: "من أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتها وافتخرت بها لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل فنقلتموها إلى بلادكم ونسبتموها إلى أنفسكم" ⁵ إلى أن يقول "سارتون" دائماً: " وهذا هو الرأي، كما نجده في رسائل "إخوان الصفاء"، يتفق مع روايات يهودية أخرى تقول بأن أرسطو نفسه استمد علمه وفلسفته من مصادر يهودية ⁶، وقد كان أرسطو، حسب هذه الروايات، يهودياً بالسلالة أو ممن ارتدوا واعتنقوا الدين اليهودي ⁷.

حياة ابن رشد في سطور .

ابن رشد عملاق آخر من عمالقة الفكر الفلسفي، ولد سنة 520هـ / 1126م بقرطبة التي كانت تضاهي في آبهتها العلمية بغداد وأثينا في عصورها الذهبية. ففي سنة 549هـ / 1153م استدعاه عبد المؤمن المؤسس الفعلي للدولة الموحدية ليساعده على تنظيم شؤون التعليم. وحينما توفي عبد المؤمن تولى العرش ابنه.

وكان لهذا الخليفة الجديد صداقة متينة مع الفيلسوف ابن طفيل الذي قدّمه إلى الخليفة فأعجب بجزارة علمه وتبحّره في ميدان الفلسفة فأمره بشرح

⁵ - تاريخ العلم، جورج سارتون ص 155.

⁶ - تاريخ العلم، جورج سارتون ج 5، اليهود واليونانية، ابتداء من ص 55.

⁷ - المصدر نفسه ص 69 تعليق رقم 27.

كتب أرسطو ثم ولاه القضاء في إشبيلية سنة 565هـ/1169 م كما عينه قاضياً في قرطبة سنة 567هـ/1171 م وفي سنة 578هـ/1182 م استدعاه الخليفة مرة ثانية ليجعله طبيبه الخاص، بعد أن عجز ابن طفيل عن مواصلة تلك المهمة، ثم عين مرة ثانية في منصب قاضي القضاة في قرطبة. وفي سنة 580هـ/1184 م تولى أبو يوسف الخلافة بعد وفاة أبيه وكانت العلاقة جيدة بينه وبين ابن رشد إلى أن توترت العلاقة بينهما فنفاه سنة 591هـ/1195 م في قرية ليسانة، وفي سنة 595هـ/1198 م عفى عنه الخليفة ولكنه توفي بعد أشهر قلائل في تلك السنة.

البيئة الثقافية لابن رشد .

لقد عاش ابن رشد في أسرة مثقفة، كان لها الأثر العظيم في تكوين شخصيته وإبراز مواهبه العلمية، ويتجلى ذلك في تلك المكانة الرفيعة التي كانت تحظى بها أسرته في المجتمع الأندلسي. فلقد كان أبوه أبو القاسم قاضياً في قرطبة ومنصب القضاة في قرطبة لا يتولاه إلا من كان متبحراً في علوم الشريعة ملماً بأسرار الفتاوى وما تقتضيه من حنكة واجتهاد. فعن هذا الأب تلقى ابن رشد تعليمه وعنه درس الموطأ حفظاً وشرحاً. ولقد توفي أبوه وقد تجاوز الأربعين سنة. أمّا جدّه فلقد كان أيضاً قاضياً في قرطبة وكان أحد أقطاب العلماء البارزين، ولقد كان يتمتع بشهرة عظيمة سواء من الناحية العلمية أو السياسية. فمن الناحية العلمية فيكفيه شرفاً أنه كان قاضي القضاة، أمّا الجانب السياسي

فكثيرا ما كان يستشير الخلفاء في بعض القضايا فيأخذون بأفكاره وآرائه وكثيرا ما كان يفلح في إخماد نار الفتنة وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين، وتقول المصادر أنه ترك مؤلفات عديدة منها كتابه الفتاوى وكتاب المقدمات. لقد توفي ابن رشد الجد سنة (520 هـ/1126 م)، ولقد صلى عليه ابنه أبو القاسم وقد حضر جنازته جموع غفيرة لما كان يتمتع به من تقدير واحترام. هذه هي البيئة الأسرية التي تربي في أحضانها فيلسوفنا العظيم.

بيئته الحضارية .

لقد كانت البيئة الحضارية التي عاش فيها أرسطو شبيهة بالبيئة التي عاش فيها ابن رشد. فلقد كان أرسطو كما أوضحت، يمثل خلاصة للفكر اليوناني، كما كان ابن رشد يمثل خلاصة الفكر العربي الإسلامي. ولقد بينت هذا في كتابي: " تأملات في النهضة الإسلامية " انطلاقا من أن القرآن الكريم كان يتضمن مسائل دينية وفلسفية وعلمية وأن المسيرة التاريخية للإسلام سارت على هذا المنوال، أي أنها اجتازت ثلاث مراحل : المرحلة الأولى ويغلب عليها الطابع الديني، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الفلسفة. أما المرحلة الثالثة فلقد غلب عليها الطابع العلمي. وابن رشد كان يمثل رمزا لتلك الأدوار بصفته قاضيا وفيلسوبا وطبيبا، كما كان أرسطو آخر نجم في سماء الفكر اليوناني من حيث الإنتاج و الإبداع الأصيل فإن ابن رشد كان آخر قطب في سماء الفكر العربي

الإسلامي. إن مجتمعنا لم ينبج لحدّ الآن فيلسوفا ومفكرا عظيما في مستوى فيلسوفنا ابن رشد.

فلسفة ابن رشد التركيية .

إذا تأملنا فلسفة ابن رشد وجدناها فلسفة تركيية، لكنّه لم يستعمل المنهج الأرسطي الجدلي فحسب، ولكنّه اعتمد منهاجا استمدّه من القرآن الكريم، ذلك أنّ المعرفة عند ابن رشد تختلف حسب طباع الناس وقدراتهم العقلية بواسطة البرهان وهؤلاء هم الفلاسفة، ومنهم من يقتنع بالأدلة الجدلية وهؤلاء هم المتكلمون، ومنهم من يقتنع بالأدلة الخطابية وهي خاصة بالجمهور وهذا طبقا لقوله تعالى: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن". (سورة النحل الآية 125).

ولقد طبق ابن رشد هذا المنهج عندما تناول آراء المتكلمين والفلاسفة بالبحث والتمحيص، فلقد انتقد المتكلمين لأنهم كانوا يدافعون عن الدين بواسطة أدلة جدلية لا ترقى إلى مستوى البرهان ولأنهم كانوا يتبنون أفكارا مسبقة ثمّ يحاولون إثباتها بواسطة الأقاويل كيفما اتفقت، يقول ابن رشد: "فإنّه لما كان هذا العلم يقصد به نصره آراء قد اعتقدوا فيها أنّها صحاح، عرض لهم أن ينصروها بأي نوع من الأقاويل اتفق . سوفسطائية كانت، أو جاحدة للمبادئ الأولى، أو جدلية، أو خطائية"⁸. كما انتقد الفلاسفة

⁸ - تفسير ما بعد الطبيعة ج 1 ص 43.

خاصّة ابن سينا، بأنّ المعرفة عنده ليست برهانية ولا تعتمد العقل والمنطق وإنّما هي معرفة إشراقية، فالفلسفة الحقّة في نظر ابن سينا و أضرابه هي التي تلتمس عن طريق الحدس أو الإلهام أو الذوق لا عن طريق النّظر العقلي⁹.

وهكذا انتقد ابن رشد المتكلّمين والفلاسفة لأنّهم ألغوا العقل واعتمدوا العاطفة، أمّا ابن رشد فإنّه يتناول النّصوص بعقل منفتح، فالعقل أوّلا ثمّ النّص ثانيا، فإذا وافق النّص مقتضيات العقل فإنّ النتيجة تكون يقينية، أمّا إذا تعارض النّص مع العقل وجب التّأويل، والتّأويل لا يقوم به إلاّ الرّاسخون في العلم.

وهكذا تجاوز ابن رشد المعرفة الجدلية والخطابية إلى معرفة برهانية أساسها المنطق والقياس والمقارنة والانطلاق من مقدّمات يقينية تستخلص نتائج صادقة بالضرورة.

نكبة ابن رشد .

حينما تولّى ابن رشد منصب قاضي القضاة في قرطبة علا مكانه، وذاع صيته وأصبح اسمه يتردّد على كلّ لسان، ولقد عودنا التّاريخ أنّ هذا النوع من المناصب يجد أصحابها متاعب شتى لتأدية وظائفهم وهذا هو حال ابن رشد، فلقد كثر حسّاده وأكل الحقد قلوبهم ممّا دفعهم إلى التّنقيب في باطن كتبه، فعثروا على هذه الجملة بخط يده: " لقد ظهر أنّ الزّهرة أحد الآلهة "، " لقد رأيت الزرافة عند ملك البربر ". لقد ظنّ هؤلاء أنّ هذه الأدلة المادية كافية

⁹ - التزعة العقلية، عاطف العراقي، مقدمة الأهواني ص 7.

إدانتة وإسقاطه من عرشه، وإنزاله من عليائه، فلقد عرضوا هذه النصوص على الخليفة ولما كان في حرب مع أحد الملوك المسيحيين، اضطرَّ إلى استقطاب الجمهور واستمالته للوقوف إلى جانبه، فكان ابن رشد كبش الفداء، لقد جمع الخليفة أعيان قرطبة وفقهاءها، وكان ابن رشد حاضرا، فقال له الخليفة : " أخطك هذا " فأنكر فقال : " لعن الله كاتبه¹⁰ ، ثم نفاه إلى اليسانة وهي قرية قريبة من قرطبة كان معظم سكانها من اليهود، ومن الواضح أن هذه النكبة سياسية في جوهرها، لأن الاشتغال بالفلسفة لم يكن يتعارض مع الدين ولم يكن ضمن المحظورات، فلقد اشتغل والد الخليفة بالفلسفة وهو الذي شجّع ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو وشرحها وبسط ما غمض منها. ثم إن ابن طفيل الطّبيب الخاص للبلاط كان فيلسوفا وهو صاحب قصة : "حي ابن يقظان". وهكذا نكب أرسطو بناء على قضية لا علاقة لها بالإلحاد، وابن رشد نكب بناء على نصوص ليس فيها ما يشتم رائحة الإلحاد.

ابن رشد واليهود .

لقد جاء في سيرة ابن رشد للأنصاري هذه الفقرة التي أوردها رينان في نصّها الكامل ص 438 : " ثم أمر أبو الوليد بسكنى اليسانة لقول من قال إنّه ينسب في إسرائيل، ولأنّه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس". وقال العقّاد في كتابه " ابن رشد " : " وأمره (أي الخليفة) بملازمة اليسانة وهي قرية

¹⁰ - ابن رشد والرشدية، محنة ابن رشد ص 454.

كانت قبل ذلك مأوى لليهود، قيل إنّه نفى إليها لأنه كان مجهول النسب بأرض الأندلس وكان المظنون به أنّه كان من سلالة بني إسرائيل " ص 19.

فمن أطلق هاته الإشاعات؟ هل خصوم ابن رشد أم اليهود أنفسهم؟ فالأستاذ عبده الشّمالي في كتابه: " تاريخ الفلسفة العربية " يرشّح أن يكون الوشاة هم أصحاب الشّائعات وذلك لقوله: " فرعم الوشاة أن ابن رشد يهودي الأصل، لا يعرف له بين قبائل العرب نسب، وقد نفاه الخليفة وحده إلى موطن اليهود ليعيده إلى أصله ". ص 645. والرّاجح عندي أن اليهود هم أصل هذه الشّائعات، ثمّ بعد ذلك أستغلّها الوشاة لنشرها بين النّاس.

فلقد سبق لنا أن استعرضنا طائفة من الأقوال تزعم أن التّراث اليوناني ابتداء من هميروس إلى أرسطو جذوره يهودية، بل أن أرسطو نفسه كما مرّ بنا هو من سلالة يهودية، ونحن نعلم أن الجالية اليهودية في اليونان والإسكندرية خاصة كان لها نفوذ عظيم، واستمرّ هذا التّفوذ عبر التّاريخ بما في ذلك الأندلس أعني قرطبة، فلقد كانت تعجّ باليهود بل إنّ الجالية اليهودية كانت محظوظة أكثر من أية جالية أخرى، ثمّ إنّ هذه الجالية هي التي استوعبت التّراث العربي والإسلامي وانتفعت به، بل حتّى أن بعض الفلاسفة اليهود كانوا أسبق من ابن رشد نفسه¹¹. لكن هل هذه الشّائعات كان القصد منها التّيل من سمعة أرسطو وابن رشد، أم كان القصد منها الإغلاء من شأنهما؟

¹¹ - راجع نوايح الفكر العربي، العقّاد ص 19.

الواقع أن اليهود كان هدفهم تحقيق الغرضين معا فعندما يزعمون أن أرسطو من سلالة يهودية، يعني أنه ليس أوروبيا وليس للأوروبيين أن يفتخروا به، بل سيحتقرونه لأنه ليس من جنسهم، ولا من عرقهم وكذلك بالنسبة لابن رشد، فالغرض هو النيل من سمعة العرب و المسلمين حتى يبقى في نظرهم فيلسوفا أجنبيا، لكنه يبقى في جميع الأحوال فيلسوفا عملاقا ولو كان من سلالة يهودية. وهذا يعني أن اليهود هم أفضل الأمم دينا، وثقافة، وفلسفة، إنهم (شعب الله المختار).

ابن رشد الشاعر .

إذا ذكر اسم ابن رشد ذكر معه الفقه والفلسفة والطب، أما الجانب الأدبي فإن بعض المصادر وخاصة الحديثة منها لا تعطيه أية أهمية بل تهمله أساسا، والحقيقة أن ابن رشد كانت له قدرة فائقة على نظم الشعر وقرضه وتعاطيه بحيث لو تعهدا بالمران والدربة، والممارسة المستديمة لعد من كبار الشعراء والأدباء، ويشهد على ذلك أن ابن سعيد صاحب كتاب: " المغرب " يقول راويا عن أبيه " أدركه والدي وقرأ عليه "، وقال في وصفه الشقندي : فقيه الأندلس وفيلسوفها الذي لا يحتاج في نباهته إلى تنبيه وأنشد من شعره قوله:

"أما العشق شأني ولكن لست أنكره * كم حل عقد سلواني تذكره".

كما أن الفيلسوف الفرنسي الشهير "رينان" يقول عن شاعرية ابن رشد: "ونعلم من ليون الإفريقي أن ابن رشد كان قد نظم عدّة قصائد خلقية وغزلية فأحرقها في مشيبه، وينقل ليون إلينا قطعة منها تجعلنا نفترض بالحقيقة، كون الحكمة من بعض التّواحي، لم تأت ابن رشد إلّا مع مرّ السنين ". ونحن إذا سايرنا رأي رينان وقلنا إنّ الحكمة لم تأت ابن رشد إلّا مع مرّ السنين يعني أنّ الموهبة الشعريّة كانت متساوية مع المواهب الأخرى التي خصّه الله بها، لكن لما قمع هذه الموهبة وانصرف عنها دون أن يعمل على تنميتها يجعلنا نفترض أنّ ذلك يعود إلى ما يمتاز به الفقه من جلال ووقار في المجتمع الإسلامي الأندلسي وما تستلزمه الفلسفة من جدّية وصرامة في التّفكير، وما يقتضيه الطّب من موضوعية وحياد بعيدا عن المشاعر الجياشة والعواطف الجاحمة والأهواء المتقلّبة، المهم أنّ ابن رشد - مثل أرسطو- كان يتعاطى الشعر في شبابه وتخلّى عنه في كبره وهذا ما أردت التّنصيب عليه بعد أن تغاضت عنه المصادر على كثرتها.

هذه هي بعض الصّفات المشتركة بين الفيلسوفين الكبيرين رغم الفاصل الزماني السّحيق الذي فصل بينهما. وإذا كان الله سبحانه وتعالى خلق البشر وجعلهم يختلفون عرقا، وجنسا، ولغة وعدّد ذلك من آيات الله العجيبة، فإنّ الله لم يخصّ جنسا بالعبرية وحرّم جنسا آخر.

على أنّني في الختام أودّ أن أشير إلى أنّ ابن رشد كتب بلغة قد بلغت درجة قصوى من النّضج والرّقي مثل لغة أرسطو غير أنّ اللّغة اليونانية اندثرت

